



بدأت الأدبية قرة العين حيدر كتابة القصة القصيرة سنة ١٩٤٥م، وصدر لها قصة بعنوان « هذه الأمور » نشرت بجريدة «همايون» الصادرة في لكةنو، وحين كان عمرها تسع عشرة سنة كتبت أول رواية لها بعنوان «معبدى أيضا» فجذبت انتباه القراء، ثم صدر لها بعد ذلك رواية بعنوان «بحر النار» احتلت مكانة في الأدب الأردى (١).

حين بدأت قرة العين حيدر كتابة قصصها القصيرة، كانت شبه القارة الهندية تشهد انقلابات وثورات فكرية وسياسية، وتساؤلات جيدة، وأحاسيس مختلفة، فالزمان مضطرب، ولا يمكن كسب السرور من ذكريات الماضي، والمستقبل لا ينبئ بما هو سار، والحاضر غير مستقر، والمجتمع من

قرة العين حيدر أدبية معاصرة، تنتمي إلى الهند، حيث كان مولدها، وإلى باكستان، التي هاجرت إليها، فترة، ثم هجرتها لتعود إلى مسقط رأسها، لكةنو، التي خرجت الكثير من أدباء الأردية الكبار، وشكلت مع مدينة دهلي في تاريخ اللغة الأردية ما يذكّرنا بما كانت عليه مدينتا البصرة والكوفة.

كتبت قرة العين حيدر القصة القصيرة والرواية على حد سواء، ورغم أنها كانت مقالة في إنتاجها الروائي، إلا أن ما صدر لها من قصص احتل مكانة رفيعة في الأدب الأردى المعاصر، ونال إعجاب القراء والنقاد.

كتبت الأدبية قرة العين حيدر مقالات صحفية، كما كتبت في أدب الرحلة، فحققت شهرة كبيرة، وقد نشأت في الهند، ثم هاجرت إلى باكستان بعد تقسيم شبه القارة، وكان للهجرة تأثير كبير في فنّها الأدبي، كما أنها أثرت اللغة الأردية باستخدامها الألفاظ الهندية والسنسكريتية، حين كانت تكتب عن موضوعات تتعلق بالعهود القديمة في الهند، وكانت تستخدم الأردية الراقية التي تروج في لكةنو ودلهي، وبرعت بوجه خاص في التعبير عن اللغة التي تنتشر بصفة خاصة على لسان الخدم والطبقة الدنيا في المجتمع.



د. سمير عبد الحميد - اليمان

الأدب الإسلامي النسائي في الهند

قرة العين حيدر

نقطة البداية في القصة الأردنية الحديثة

■ الطاقات الكاتبة من إحساس شديد بمبادئ الإسلام وحضارته العكس على تصويرها لواقع الإنسان.

حولها يتغير، لا يهتم بالواقع، ولا بالحقائق، وليس لديه ما يمكنه من الإبقاء على الانسجام في البيئة المحيطة، والمجتمع في شغل شاغل يبحث عما يلهي به القلب، وكان لكل هذا أثره في الإنتاج القصصي للكاتبة التي أصدرت مجموعتها القصصية الأولى فكانت كما يقول بعض نقاد الأردية « نقطة البداية في القصة الأردنية الحديثة »^(٢)، وهكذا تخلصت الأدبية من فكرة تتابع الأحداث والأشخاص على خط مستقيم، وركزت على الإبداع اللغوي من خلال عناصر الوصف والتصوير - وهو أحد عناصر فنية العمل القصصي الهامة^(٣) ولهذا كانت سمات الإبداع النثري في قصصها واضحة، كما انعدمت المسافات بين الألفاظ والأشياء، إذ كانت العلاقة بين الألفاظ والأشياء عن طريق الاستعارة، مما أوجد صوتاً للإحساس الداخلي رغم صمت المناظر، وهذا واضح في قصتها «حيث حطت القافلة رحالها»، وتعبيراتها في قصتها هذه تساعد على إظهار روح الغم والحزن المحيط بشخصياتها وعلى سبيل المثال نطالع العبارة التالية:

«...الحياة مهيبة، مخيفة، لا يمكن احتواؤها ولا الوصول إليها، وهي تبدو ظاهرة من بعيد... آه هكذا تهت من أجل الفردوس المفقود...»

«...والوقت بدا وكأنه حلم قديم لعفريت من الجن قديم، توقف لا

يتحرك، ليس هناك سوى صرخات الليل، وآهات الكائنات النائمة، ولسعات النجوم الباردة».

وكما هي عاداتها تجعل الجزء الأخير من القصة يتضمن منظراً رومانسياً، تماماً مثلما بدأت قصتها بمنظر رومانسي، وهذا المنظر يحمل في العادة معنى عظيماً لأن قرة العين حيدر تضع نفسها ضمن شخصيات قصصها.

في قصتها «بيت من زجاج» مزجت أحداث التاريخ وتوقعيات العصر الحاضر، وظروف النزوح الجماعي من الوطن، والهجرة الجماعية أثناء تقسيم شبه القارة الهندية، وهكذا جاءت القصة مراثية لانهدام جدار العلاقات الإنسانية، والروابط البشرية، وضياح القيم في القرن العشرين، كتبت ما يلي:

«...أرض جديدة، خرابة لمحصل الحضارة التي ولت، سماء جديدة، حرمت من ضوء الشمس والقمر، الضوء الذي كان يعم الدنيا في الماضي».

ومن الجدير بالذكر أن قرة العين حيدر كتبت قصتها «قبل أن يسقط الثلج» بعد تقسيم شبه القارة مباشرة، فحكّت كيف وصلت «بوبي ممتاز» إلى مدينة «كويتة» (في باكستان) قادمة من الهند، بدأت قصتها بوصف هذا المنظر من غرفة «بوبي ممتاز»: «لا بد أن الثلج سيسقط الليلة...» هكذا قال صاحب البيت.

وتجمع الكل بالقرب من المجرمة، جلسوا متقاربين، وراحت أصوات النيران الملتبحة تتبع في نغمات، تداخلت مع تطاير الشرر من الأخشاب المرصوصة في نظام متكامل، داخل المجرمة، وراحت القطط تمد رأسها وأنفها، تمسح الوسائد التي اتكأ عليها الجميع، كما راحت أحياناً ترفع أذنها إذا ماسمعت أي صوت انبعث من ناحية غرفة الطعام، ثم تفتح جانباً من عينها لتتأمل إلى من عساه يخرج... وكانت ابنتا صاحب البيت مشغولتين في أعمال الإبرة، تنسجان الصوف، بينما انشغل الأطفال بمطالعة الصحف والمجلات القديمة، وهم قابعون في أحد أركان الغرفة»

هذه الصورة التي تشبه الموسيقى الهادئة، تتناهى إلى الأسماع من بعيد، ماهي إلا رمز للإحساس الداخلي لبطلان القصة، هذا بالإضافة إلى ذكر تساقط الثلج، فهذا تلازم فكري خرج من ذهن «بوبي ممتاز»، وهو صدى



أيضا لذكريات وجودها السابق في مدينة «لكهنو» الهندية، إذ كان المذيع يذيع من لكهنو في نفس الوقت «نشرة الأحوال الجوية»، فما يصدر عن الأدبية هو شمول للماضي في لحظات الحاضر، وهذه تجربة (ميثافيزيقية). والحقيقة هي أن قرة العين حيدر تركز على التصوير الفني، وعلى الوصف أكثر من اهتمامها بالشخصيات، وهي هنا تنتمي إلى مدرسة الواقعية التسجيلية، فهي ترصد الظواهر الحية، وتصور معالم المجتمع، وهي أيضا لا تتجاهل بعض الجوانب النفسية لشخصياتها⁽⁴⁾.

ويرى بعض النقاد أن الإبداع القصصي عند قرة العين حيدر من الملامح البارزة لديها، ويستشهدون بقصتها «بيت من زجاج» التي عبرت فيها عن حقائق الوجود الإنساني، وخاصة إنسان العصر الحاضر، تلك الحقائق التي يصعب بيانها والتي لا يمكن وضعها في دائرة الألفاظ، وتستلزم كفاءة إبداعية على مستوى عال⁽⁵⁾.

والدائرة الفكرية لقرّة العين حيدر واسعة جدا، ففي اللاشعور التاريخي نشاهد اليونان وروما ومصر وبابل وإيران والصين، واختلاط الغرب بالشرق، ليكون كل هذا أداة لنقد الحضارة الجديدة التي انقطعت عن جذور الماضي، وتعلقت بلحظة الحاضر بحيث انقطعت صلتها أيضا بالمستقبل. كما أن الثقافة التي شملت

على الشاشة الفضية (السينما)، فقدمت قصص الأنبياء، ومن خلال تدفق الزمن يصبح حوت يونس عليه السلام، حوتا فولاذيا (طائرة) يسقط من الفضاء، وبداخله أولئك الذين خرجوا بحثا عن الذهب الأسود المتدفق في الصحاري، والريح العقيم التي كانت مقيدة بسبعين ألف سلسلة تحررت... لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.. هكذا جاء الصوت، ثم رفع قمطير كلب أهل الكهف رأسه إلى السماء، وراح ينبج.. وهكذا تنتهي القصة.

بعد أن تمضي الأدبية عبر الأزمان، تجول هنا وهناك، كأنها في حلم، تستيقظ منه في النهاية: «... فحين أفقت من غفوتي، نظرت فوجدت نفسي في بطن الحوت، حوت فولاذي، قوي الجثة مهيب، انطلق في السماوات، لم أكن في بطنه وحدي، بل كان معي رجال ونساء من أمم العالم، كانوا مشغولين جميعا بالأكل والشرب، وكانت حوريات جبل قاف مشغولات بخدمة الرجال، يقدمن لهم شرابا في كؤوس بلورية، ويقدمن لهم ما طاب من الفواكه، وأمامهم بجوار فك الحوت ستارة فضية فوقها صور متحركة بعنوان «الحلق الغائر».

أدرت عيني وسألت الجالس بجواري:

- هل أنت رفيقي «سلطوبوس»؟
أين كلبنا قمطير؟
فقال:

أهل الهند جميعا دون تمييز بين دين وآخر، والحضارة التي شملت البلاد.. كل هذا عزيز عليها، ومن هذا المنطلق يتولد لديها إحساس شديد بمبادئ الإسلام وحضارة الإسلام، كما تهتم بالإنسان، كل إنسان، في الماضي والحاضر، بل وتجعل إنسان الماضي يواجه إنسان الحاضر والعكس بالعكس، وهو هو ما نلاحظه في إنتاجها الأدبي بعد «بيت من زجاج» وهو إنتاج في معظمه قصص طالت قليلا، ولم تصل بالطبع إلى كونها روايات، وهي ترثي فيها الحضارة التي ازدهرت في الهند، فتشكل منها ملحمة، أعطاهها قلم الأدبية شكلا مرثيا محسوسا، ويمكن أن نلاحظ هذا في قصصها: حديقة الشاي، والهجرة، واعترافات فلورا جورجيا، وحسب ونسب، وبائع المرايا في مدينة العميان، والمصوراتي وسرعة الضوء والسكرتير، وسائحان، وغيرها من القصص.

ويمثل بعض هذه القصص الشعور التاريخي الخاص للكاتبة، وبعضها يبحث في التاريخ من مفهوم خاص مثل بائع المرايا في مدينة العميان، وسرعة الضوء، وسائحان.

والقصة التي نقدم ترجمة مقتطفات منها هنا هي بائع المرايا في مدينة العميان، قصة لم تلتزم الأدبية فيها بتتابع عرض الأحداث، ولجأت فيها أحيانا إلى عرض الأحداث بما يشبه تسلسل الصور

فالإحساس هنا إحساس الألم واليأس، بالإضافة إلى تصوير شريحة كبيرة لأناس هذا العالم، حيث يرفرف عليهم عفريت الفناء، ولهذا فإن الكفاح من جديد ربما لا تكون له بداية، فعهدا في حاجة إلى من يربطه بالثقافة الأصيلة، التي لم نعد نتمسك بها، وهذا يحتاج إلى قنطرة عبور بين عالمين، والأديبة تصور هنا هذه القنطرة التي تمضي عليها القافلة البشرية الجريحة المخدوعة في آمالها، فالاتجاهات غير واضحة، لهذا يضطر الأفراد إلى العودة أحيانا، دون عبور كما يضطر البعض إلى الهروب هنا أو هناك، ولهذا فهي تدعو إلى العودة إلى المثل العليا، وإلى المبادئ، العودة إلى الله، وإلى التسامح، وإلى الإيمان، ولكنها في النهاية تشعر أن لا أحد من الناس يستمع إليها، ولا يفهم قولها، والجميع يمضي.. لا يعيرها انتباها، فماذا يفيد لو اشترى الأعمى مرآة؟ ■

الهوامش:

- (١) مقدمة مجموعتها القصصية «قرة العين بهترین أفسانا، ترتیب کوکب کاظمی لاہور بدون تاریخ.
- (٢) جديد أفسان کا، محمود ہاشمی، ص ٤٣٦، بحث في كتاب اردو أفسانہ روایت، دہلی ١٩٨١م
- (٣) دراسات في الرواية والقصة، د. حلمي بدير، ص ١٩، ط دار المعارف، ١٩٨٥م، وانظر أيضا جديد أفسان ص ٤٣٨ .
- (٤) الاتجاهات الواقعية في القصة، د. محمود الحسيني المرسي، ص ٢٧٦، ط دار المعارف، ١٩٨٤م
- (٥) اردو أفسنتہ روایت اور مسائل، ص ٩٣ .



والخبال، وفي حوارى «لكشمي تيله» راحوا يسفكون دماء بعضهم، يريدون إفتاء أنفسهم... تهدم بيتي وضاع كل ما فيه من متاع وأثاث، وكنت الوحيد من أتباع ديني الذي نجا بجلده.

إلى أن تقول:

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. أما أنا كاتب هذه السطور، بائع المرايا في مدينة العميان، فقد قصصت هذه الحكاية، ومن قمة الجبل، خرج قمطير كلب أصحاب الكهف، رافعا رأسه إلى السماء، ينبج دون انقطاع.. وهكذا تختم الأديبة قرة العين حيدر قصتها..

- لا.. لست أنا الذي تعتقده.. ذكر اسمه وأراني جرحه الغائر العميق، وسكت، لم ينطق بحرف، بينما جرت دموع الدم من عينيه، فقلت متعاطفا معه:

- هل أنت أيضا ضحية ظلم دقيانوس؟ فقال:

- أنا ضحية لظلم الأفكار الدقيانوسية، والتعصب الدقيانوسي، والنظريات الدقيانوسية...

لم أفهم الخطبة التي ألقاها على مسامعي، وظل يتكلم، وأنا أصغي إليه:

- أنتمي إلى بلدة قديمة، تعرف قديما باسم «لكشمي تيله».. نجوت بنفسي، وأهرب الآن، نزل عذاب الله الأليم على أمتي، فأصابها الجنون